جدلية الواقع والمتخيل

قراءة في ديوان «قناديل الريح»

للشاعر عبدالله محمد باشراحيل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مؤسسة دار الكتاب الحديث

طريق المطار - سنتر زعرور ص.ب: ١٤/٥٩٦٣

هاتف: ٠١/٤٥١٠٣٦ - ٠١/٥٥٥٣٤١

جدلية الواقع والمتخيل

قراءة في ديوان «قناديل الريح»
للشاعر عبدالله محمد باشراحيل

الدكتور محمد بن مريسي الحارثي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ربع قرن من الزمان بين أول ديوان شعري أصدره الدكتور عبدالله محمد صالح باشراحيل عام ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م ، وهو ديوان (معذبتي) ، وهذا الديوان الخامس من إصداراته الشعرية (قناديل الريح) . وبين هذا الديوان والديوان الأول صدرت للشاعر دواوين ثلاثة هي : ديوان (الهوى قدري) صدر عام ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م ، وديوان (النبع الظامئ) وقد صدر عام ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م ، وديوان (الخوف) وكان صدوره عام ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

والراصد لشعر عبدالله باشراحيل يجد في الديوانين الأولين بروز الملمح الرومانسي ، ثم أخذ يتدرج في التحول إلى الواقعية ؛ ولا أقصد بالواقعية المذهب الأدبي ، وإنما أهدف إلى واقعية الحقيقة الكونية . هذا ما تلمحه على شعره في ديواني (النبع الظامئ) و(الخوف) ، وما ظهر واضحاً في ديوانه هذا (قناديل الريح) . وقد عرفت الشاعر عبدالله باشراحيل يختلف إلى المنابر الشعرية منذ

الشاعر ناقداً

ليس بالضرورة أن يكون الشاعر ناقداً ، وكذلك العكس ، لكن العلاقة الوثيقة بين الشعر والنقد الأدبي ، قد تتيح الفرصة لالتقاء الغريزة الصانعة بالذهنية المائزة ، دون أن يكونا في درجة واحدة من الاهتمام عند الشاعر أو الناقد . إذ لا بد من غلبة أحدهما على الأخرى ، لتكون إحداهما الحقيقة والأخرى الظل ، على أي مستوى من مستويات الحقيقة والظل . وعلى هذا فكل شاعر يمتلك شيئاً من الحاسة النقدية ، وكل ناقد يمتلك هو الآخر بعضاً من الحاسة الشعرية ، وإلا لما كان بينهما التقاء أو تقارب . هذا من حيث الظاهرة الشعرية ، وكذلك النقدية في عمومها . ألم تكن القصيدة تمكث حولاً كاملاً عند بعض الشعراء العرب الفحول ، يعيدون فيها النظر

كصدق التجربة ، واللغة الشعرية ، والوحدة المعنوية ، والنقد الاجتماعي .

فقد بحث في وظيفة الشعر عن الفكرة الأخلاقية ، وعن شرف المعنى الفضائلي . فالأخلاق عنده شعار الحياة ، وشعر حسين عرب في نظره مليء بالمعاني النبيلة والأهداف السامية .

ولحسين سرحان نفس كريمة يترفع بها عن مزالق الحياة ، وتجد في شعر محمد حسن فقي الخلق الجم والحياء الإسلامي ، وإبراهيم فودة من شعراء الفضيلة والانتماء إلى المعرفة العربية الشرعية . والإنسانية السوية هي من خصوصيات الأديب العربي المسلم ، حتى عندما يعاني هذا الأديب من غربة النفس ومن شطط الخيال ، فإنه والحالة هذه يركب بساط المعرفة للبحث عن الحقيقة الكونية . فأدباؤنا رسل خير ، وحق ، وجمال ، ينشدون تحقيق الفضيلة ، وتأصيلها وفق الفطرة الإنسانية السوية .

وإن مجرد التفكير في الخروج عن أهداف الأدب الانتمائية من جهة المنظور العربي ، يخرج الأديب من

وتنويرهم وتنبيههم وإيقاظهم ، وهو ضمير الأمة ، ولسان حالها . وقد أشار إشارة سريعة إلى مهمة الشعر في النقد الاجتماعي . فحسين سرحان لم يكن يرى في هذه الدنيا سوى الحقد ، والحسد ، والبغض ، والتناحر بين الإنسان وأخيه الإنسان ، والآلام التي تنتابه هي آلام حقيقية غير واهمة ، وهذا كله من نقائص الحياة .

أما فيما يتعلق بثقافة الشاعر ، فقد امتدح شعر ابن عثيمين ، إذ وجده موسوعة بلاغية ، وتاريخية ، ودينية ، وإنسانية ، وأشار إلى تعدد ثقافة حسين عرب ، وأنه من الذين أخذوا من كل علم بطرف . وإن أول مواد الثقافة الشعرية هي أقربها إلى ملكة هذا الفن ، وهي علم الأدب من لغة ، ونحو ، وصرف ، وبلاغة ، ومتعلقات هذا العلم . وقد وجد في شعر إبراهيم فودة كثيراً من الجوانب الإنسانية ، والوطنية ، والشعور الديني الصادق ، وهذا ما يدل على سعة ثقافته .

ومهمة الشاعر في الحياة تشبه إلى حد ما مهمة المصلح الاجتماعي ، فالشاعر العربي المعاصر عد

الحياة وواقعها المعاصر ، وهي دعوة إلى استقلالية الشاعر في رؤيته ولغته .

وقد ألمح إلماحة سريعة إلى الوحدة المعنوية في شعر محمد حسن فقي ، الذي اهتم في نظره بوحدة الموضوع ، من حيث التلاؤم بين اللفظة واللفظة ، وعلاقة الجزء بالجزء ، والجزء بالكل حتى تكون القصيدة وحدة حية متكاملة .

لقد أطلنا الوقفة عند آراء الدكتور عبدالله باشراحيل النقدية ، وما تلك الإطالة إلا لبيان أثر مثل هذه الآراء النقدية على تجربة الدكتور عبدالله الشعرية ، إذا ما وجدت انعكاس بعض تلك الآراء على شعره في هذا الديوان ، أو في عامة شعره لمن أراد أن يدرس شعره دراسة كلية ، تجلي اتجاهه الشعري في لغته ، ومضامينه ، وتضعه في مكانه الطبيعي من حركة الشعر السعودي المعاصر .

السمات والخصائص

وللشعراء مواقف نحو ما يشتهون من الشعر ، وما ينتجونه منه ، فقد يكون هناك حراك داخل النفس الشاعرة ، بين ما تشتهي من الشعر ، وما تنتجه منه من حيث فقدان التوافق . فقد كان أبو تمام ، مثلاً ، يشتهي من الشعر ذلك الشعر المطبوع بطابع الحس ، أكثر من ذلك المطبوع بطابع الذهن . لكنه كان ينتج شعراً مطبوعاً في الأغلب الأعم بما يألفه الفهم ، أكثر من ذلك الشعر الذي ترغب فيه النفس ، وقد لمسنا من خلال قراءتنا لهذا الديوان أن الدكتور عبدالله باشراحيل يشتهي من الشعر ما تحققت فيه السمات والخصائص التي بثها في آرائه النقدية ، وينتج من الشعر ما توافرت فيه تلك السمات والخصائص ، فاتفقت رؤيته لما ينبغي أن يكون عليه الشعر من حيث المضامين واللغة مع منتجه منه ، وقدم في ديوانه هذا مادة شعرية وفيرة وواسعة تجد فيها المناجاة الروحية

والتحولات الاجتماعية وهضمه مشكلات عصره . فقد أتاحت له هذه الثقافة الواسعة أن يقف على أسباب التطور الحضاري الذي مرت به أمته ، ويعرف مكامن المعوقات التي كانت وما تزال تحد من توسيع دائرة ذلك التطور ، تلمس هذا كله في شعر هذا الديوان الذي اكتنز مادة معرفية واسعة ، استثمرها الشاعر في موقفه من مشكلات عصره ، وظهرت واضحة جلية في التعبير عن حاجاته القائمة في نفسه . لذلك لا تخطئك الحقيقة ، ولا تند عنها إذا أعددته من الشعراء المنتمين إلى قضايا أمته ، وتاريخها ، ومعرفتها ، ومشكلاتها ، وآمالها ، وآلامها ، ومنجزاتها ، وتطلعاتها .

وهذا ما ستلمسه فيما سنورده من إشارات ، نتناول فيها شيئاً من سمات شعره وخصائصه الموضوعية والأدبية التي سنستنطق شعره عنها . ففي شعر المناجاة للذات الإلهية ، تلحظ النفس الصافية المشبعة بالإيمان والرضى بما يقدر الله ويشاء ، فهو المتصرف في حركة الكون والناس ، وهو الملاذ عند الشدائد والملمات ، وهو الذي يعز من والاه ، ويذل من عاداه ، ولا توفيق للعبد في هذه الحياة إلا بتوفيق الله له .

مديح الأخلاق لا العطايا

تحتل قصيدة المديح من مادة هذا الديوان حيزاً قليلاً جداً ، أما موضوعات الرثاء وشعر الشكوى من الزمن ومن الحالة العربية المعاصرة ، والشعر الوطني ، والشعر الذاتي الخالص ، فهذه الموضوعات تكاد تكون في سمت واحد من حيث الكمية ، وهي الموضوعات التي تمثل صلب المادة الشعرية في الديوان .

فقد مدح الدكتور عبدالله قادة هذه البلاد إعجاباً بهم ، وافتخاراً بمنجزاتهم ، واعتزازاً بها ووفاءً لهم ، ومدح غير القادة من أصدقائه الشعراء والأدباء ، في مناسبات خاصة .

ولقد رسخ في أذهان بعض الدارسين أن الشعر

ركيزتين أساسيتين هما : المعرفة ، واللغة . هذا عند جميع الأمم . فالمناسبة لا بد أن تكون دافعاً إلى الكلام شعراً وغير شعر . والمعرفة لا بد أن تتحقق . ومن هنا لا ينتقص الشعر المدحي من هذا الجانب المناسباتي ، والمعرفي . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المديح ليس دافعه التكسب في كل الأحوال . خذ مثلاً امرأ القيس الذي مدح بني تميم ، فهل كان يطلب منهم نوالاً وهو ملك وابن ملك . وتاريخ الشعر العربي مليء بأسماء كثير من الشعراء الذين مدحوا ، ولم يكن الباعث عندهم التكسب بشعرهم .

وإذا كان عبدالله باشراحيل قد مدح بعض قادة هذه البلاد ، وبعض الشخصيات الأدبية ممن تربطه بهم علاقات الصداقة ، فإن الدوافع وراء ذلك كله تتمثل في تعلق الشاعر بالمثل سلوكاً وإبداعاً .

ولم يكن باعث التكسب بالشعر من دوافع المديح وبواعثه عند الشاعر ، وذلك لأسباب من أهمها : أن الشاعر يعد من الأثرياء المعروفين ، وهذا يدفع عنه باعث الشعر المادي .

والسبب الثاني أنك إذا استنطقت شعر المديح

إن الأصمعي كان يهدف من قوله ذاك إلى أنه لم يجد الشعر الصالح للاستشهاد للغة إلا في الشعر الجاهلي ، ولم يجد ذلك في الشعر الإسلامي ، الذي كان أستاذه أبو عمرو بن العلاء لا يستشهد للغة ببيت شعر إسلامي ، خشية الوقوع في الخطأ واللحن عندما دخل في الدين أفواج من غير العرب ، وراكن العرب الحاضرة .

ولا ننسى أن شعر الفضائل يحتاج إلى صنعة شعرية قوية ، في شعر الموضوع المدحي وغير المدحي ، ليسهل نقل الفضيلة من منطقها المعرفي الذهني إلى منطق الشعر ، وهذا لا يتهيأ إلا للشاعر صاحب الخبرة الشعرية المتطورة ، الذي مرن على التعامل مع مثل هذه الفضائل التي هي مناط الصفات المدحية . وهذا ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك . وفضائل الناس من حيث إنهم ناس لا من طريق ما هم مشتركون به مع سائر الحيوان هي : العقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة . فالمادح بهذه الصفات ، أو ببعضها يعد مصيباً في مدحه ، والمادح بغيرها يعدّ مخطئاً . هذا ما ذكره قدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) . وهذه هي الفضائل النفسية التي

عن واقعه ، يستمد من مقدمات الواقع توقعات الآتي :

لقد كانت الجزيرة العربية تعيش مرحلة جمود وركود ، وتوقف شبه كامل عن حركة التاريخ المعاصر تصل إلى درجة الموات ، وعدم الإحساس بوقع الحياة ، وهذا هو رمز الجليد وعندما أراد لهذا الجليد أن يتحول إلى أنهار ، وينابيع تبث في الناس والكون دفء الحياة وحركتها ، طرح سؤاله عن ذلك الفارس المغوار الذي أذاب الزمن الجليدي الراكد ، وأضاء قتامة الظلماء ، ونشر العدل والأمن ، إنه الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل هذا الذي وحد الكيان ، والأفئدة ، وأقام دولة الانتماء إلى الشرع ، والتاريخ ، والتراث والمعاصرة .

وقد تبدت عاطفة الإعجاب ، والفخر ، والاعتزاز بهذا المنجز الحضاري الحي ، الذي يمثل فصل الربيع في حركة فصول التاريخ العربي ، لقد غمر هذا الإعجاب ناس هذه الأرض وامتد أثره إلى الأجيال القادمة ، التي ستفخر وتعتز بهذه الصورة الحديثة التي رسمها عبد العزيز لخارطة هذه البلاد ، حتى إن الزمان أخذ يتطلع إلى هذا الفعل المعجز ،

لوعة الرثاء

ويتجلى موقف باشراحيل في فلسفة الحياة والموت ، في قصائد الرثاء التي ضمنها معاني الحكمة ، وحتمية الفناء ، وقضية الخلود ، وأن كل حادث إلى الزوال ، وأن كل شيء إلى الهلاك إلا خالق الكون ، على عادة العرب في مراثيهم من ذكر لمآثر المرثي ، وشيء من الإشادة والإشارة إلى بعض منجزاته ، وصور حياته ، وإبداء الحزن ، والتوجع على فقد الميت ، والتسليم بالقضاء والقدر ، ووصف الدنيا الزائلة ، وتفاهتها وحتمية البعث وأن عبر الحياة ينبغي أن تنبه الناس ، وتوقظهم من غفلتهم للرجوع إلى الله .

وقد اتسم شعره الرثائي بحدة العاطفة ، وقوتها ، وحرارة اللوعة ، فقد رثى والده الشيخ محمد صالح

صفات الرجال الأسوياء تحت ضغط تواتراته النفسية المليئة بمشاعر الابن نحو أبيه ، تلك المشاعر التي لا تحدها حدود منطق الشعور الممتلئ بكل سيرة هذه الشخصية التي احتلت منه حركته ، وسكونه ، حاضره ومستقبله ، حسه وذهنه .

كنا وكان الشيخ بالوجه النضر
في مهمه والحب في غدنا انتصر

. . . .

من عانق الأطفال بالحب العطر
من يحمل العطف الكبير المستمر

. . . .

يا صاحب الفقراء في ليل الكدر
كم كنت تدنيهم لمجلسك العطر
يا من يخاف الله بالحق ائتزر
والقلب يخشع والمدامع تنهمر

. . . .

جـئت أرثيك والمنايا طريق

وخطانا على الحياة معابر

ضمخ الله بالرياحين وجهاً

وسقاك الحيا من الخير ماطر

والموت في رثاء الأستاذ حمد الجاسر حق ، وقد أخذ يسأل الأستاذ عن ظل الجنان ومائها ، وعن جنات عدن في مباهجها ، وعن الرحمة الربانية الواسعة ، وأن هناك الروح والريحان والأنداء ، وما لا عين رأت ولا خطر على بال بشر ، فلا همّ ولا أرزاء .

وقد فعل مثل هذا في رثاء سماحة الشيخ ابن باز ، الذي لبى نداء الحق بفرحة غامرة وخطى عجلى ، وقد تسلح بكل عمل فيه صلاح وفلاح . كان يذود الجهالات بالشرع القويم ، وبحكمة الدين ، مجاهداً في سبيل الحق ، منصرفاً عن الدنيا ، زاهداً فيها ، لكنه ترك غراساً حية .

لا لم تمت فيك ذكرانا إلى الأبد

يا كوكب العلم بين المتن والسند

ونظراً إلى فداحة الرزء في المرثي طلب الشاعر أن

مواجهة مع الزمن

وإذا كان الشعر العربي المعاصر قد طبعت مضامينه بشيء من الحساسية التشاؤمية ، والحزينة ، والمتوترة ، التي تصل إلى حد الإفراط في استبطانها ، وذلك أمام صدمة الحضارة المادية الجديدة ، فإن هذا يكاد يكون ديدن التصورات الشعرية التي تحاول دائماً استشراف المستقبل ، والتطلع إلى حياة التصور ، بتجاوز حياة الواقع ، مما جعل الشكوى من الحالة القائمة في حياة الناس ظاهرة لها دوافعها الذاتية ، والشعبية ، والأممية التي تصل عند بعضهم إلى مستوى المغامرة غير المحسوبة ، عندما تكون نتائج التجاوز قد أخفقت في تحقيق التصورات ، عندما تبحث في تلك النتائج فلا تجد شيئاً من العلاقة بين المقدمات والأسباب ، وما تحقق أو ما لم يتحقق على أرض الواقع .

في سبيل الانتصار لآلامه ، فهو شاعر مواجهة لا يستكين لمنغصات الزمان ، ولا يهرب من مشكلاته ، وقضاياه الكبرى ، التي أرقته وراكمت عليه توتراته النفسية .

والقيم الأخلاقية التي تأتي على رأس مقومات المواجهة عند الشاعر تمنعنا من أن نشتط في بؤر الانحرافات السلوكية ، التي تعوقنا عن أداء دورنا الحضاري في حياة لا تعرف مكاناً للضعفاء والخارجين على ناموس الكون المقدر بقدر الله له .

هذا ما نبه إليه الشاعر في قصيدته (الخسيس) حين يشكو الشاعر من مثقلات الزمن .

وقد تألم لغربة الفكر ، حتى شاه وجه الربيع ، وسرق الزمن فرحة العمر ، حين تنكر هذا الجيل لتراثه ، وجذوره التاريخية ، والمعرفية ، والاجتماعية ، وهذا ما تستوحيه من قصيدة (التراث) :

أنكرتنا العيون بين زمان

ساد فيه الجهول والمجهول

شاه وجه الربيع كيف يغني

إليه توازنه في نظرته إلى الحياة فمنها : الصدق ، والوفاء للناس وللوطن ، والصبر ، والحب ، والشجاعة ، والقوة ، ومجمع هذه الصفات الخيرية سلامة الانتماء إلى المعرفة الحقيقية ، معرفة الخطاب الإلهي ، والإرث التاريخي لأمته ، وهذا الذي قوى اعتداده بنفسه ، كما في قصيدته (قلبي وحبي) :

ما أضعفتني الليالي
وإن ضعفت لربي

. . . .

والحر مهما يقاسي
يظل فيه التأبي
وإن رمته سهام
وآذنته بحرب

وكما قال في قصيدة (الموت أو الشموخ) :

عش بين أنسام الشموخ
إياك تأنس بالرضوخ

فـــــمن يـخـــــبـــــر القــــادمين

كـــــيف اســـــتـــــبـــــيح الوطـن

وعـــن أمـــــــــــــــــــــــة

ألجـــــــــــــــــــمت بـــالـــرســـن

وقل عن مثل هذه النظرة في قصيدته (كفى يا عرب) .

وللنقد الاجتماعي شعراً صلته القريبة من شكوى الزمان ، لأن الظواهر الاجتماعية غير السوية هي ما يمقته الشاعر ، الذي ينفلت في هذا النوع من الشعر من ذاتية الأنا إلى ذاتية النحن ، وتجده يبحث عن جوهر الأشياء ، ويقلقه العرض الذي لا يدوم . انظر إلى ذلك في قصيدة (بلى يستوون) ، وقصيدة (العقوق) .

إن هذا النقد الاجتماعي بعد مواجهة للجانب الهزلي من حياة الناس ، وعلى هذا الأساس تمتد مواجهة باشراحيل من الزمان إلى المجتمع حتى تصل إلى قضايا الأمة الكبرى ، كقضية فلسطين ، التي تعد مجمع شعراء العرب والمسلمين ، فما من شاعر عربي

الذات ، والتيهان القسري .

وقد علق الشاعر آماله وتطلعاته على فعل الحجر ، لأنه الخطوة الأولى في طريق تأصيل الإرادة ، فوجه خطابه إلى المجاهد الحجري في صيغة الأمر التقريرية ، وكأنه يستحث هذا المجاهد على الاستمرار الآن ومستقبلاً على عدم الاستكانة ، حتى لا يتسرب إلى نفسه شيء من الضيق والضجر ، ويستدعي في هذا الجو التحفيزي على الجهاد سيف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صاحب الفتح الإسلامي الأول ، وينادي القدس بأداة النداء للقريب ، نظراً لقرب القدس من روحه وذهنه ، إذ هي مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيها القبلة الأولى ، وهي الهوى المستعر في داخل النفس ، مؤكداً أن العودة إلى القدس ، وتحريرها عهد قطعناه على أنفسنا ، وقد بدأ انبثاق النصر يشع من خلف الحجر .

الوطن الأمة

إن فلسطين جــزء من الوطن الذي غنى له باشــراحـيل ، وللمكان الوطن أهمـيــة في بعث شاعريته ، وقد أفرد لهذا قصيدة سماها (الوطن) تلمح فيها حبه للوطن وانتماءه لترابه ، وافتتانه به ، فـالوطن عنده أنشـودة العـصـر ومطالع الأنوار ، والكوكب الوضاء ، والمنارة العالية ، وفيه أقدس الأماكن ، وبه تجلت منجزات التنمية ، وقد أضفى الإمام عبد العزيز وأبناؤه المهابة على هذا الوطن ، وفي قصيدة (لن نبيع) يفتخر الشاعر ويعتد بوطنه ويمدحه معتزاً به وبمكانته ، ومآثره التي هي من أقوى روابط الحب بين الرجال وأوطانهم ، والذي حـبب الوطن لذاته في ذاته ، وحققتها له الذات الفاعلة في نمائه وتطوره ، فـهـو الوطن الرفـيع ، بل هو درة الأوطان ، ودوحـة الآباء والأجـداد ، وطن الإيمان ،

يصلح لها شأنها إلا بما صلح به أولها .

موطني يا حبة الرمل الثمين

والنمير العذل في لون اللجين

. . . .

موطني أم القرى والبيت فيها

قبلة الناس على مر السنين

نقتري الفخر وكل الفخر منها

قبس الكون وأصداء القرون

وقد امتلأت هذه القصيدة بثقافة الشاعر التاريخية والدينية ، مما هيأ لنفسه أن يمتد ليربط بين ينابيع الماضي الصافية منها ، وصور الحاضر بما فيها من متناقضات الحياة ، متطلعاً إلى مستقبل تتحرر فيه الأوطان العربية السليبة ، ويتحرر فيه الفكر من التبعية ، وغبش الرؤية .

والوطن عند باشراحيل هو الوطن الكبير ، الذي يمتد المنظور الإسلامي على مساحته . وما الإشارة إلى بعض المكان (الوطن) في شعره إلا إشارة إلى هموم

الحب العفيف

إن الشعر إحساس تجيش به الصدور ، ثم تقذفه على الألسنة ، ألسنة الشعراء . فهو والحالة هذه ليس إرادياً بحتاً ، ولذلك تنوعت مضامين المادة الشعرية في ديوان باشراحيل (قناديل الريح) . وكان الشعر الذاتي الخالص الذي تناول موضوع الحب وعلاقة الرجل بالمرأة ، بنية من بنيات شعر باشراحيل في هذا الديوان . ومن اللافت للنظر أن باشراحيل لم يبتذل في هذا الشعر ذاته وإنسانيته ، فهو عفيف في حبه ، رقيق في علاقته رقة عواطف الحب . إذا انقطع الوصال ، أو شابه شيء من القتامة انقلب حبه الربيعي إلى خريف مجدب يؤلمه بجفاف ينابيع الحب والعشق ، وتجد المحبوب في شعره ، هو الذي يتمنع عن الوصال ، فإن كان هذا يهدف من ورائه زيادة توترات الحب في نفس الشاعر ، فإنك تجد هذا يحاول بكل وسيلة وجدانية أن يكون ضحية ذلك الحب . إذ في زيادة البعد والتأبي ، أمل في القرب

التأمل

إن هذا العرض الموضوعي الذي تناولنا فيه الخطوط العريضة لصلب مادة هذا الديوان دون الدخول في تفصيلاتها ، قد أتاحت لنا الوقوف على خاصية ذهنية من خصائص شعر باشراحيل ، وهي خاصية التأمل في الحياة ، والكون ، والإنسان . تجد هذا التأمل مبثوثاً في كثير من قصائد الديوان ، وبخاصة في شعر الشكوى من الزمن .

ولعل قصيدة (كرم النقم) قد حملت هذه الخاصية التأملية ، التي اختلطت فيها الحقيقة بالحلم ، وانقاد الإنسان في مسارب ضبابية الحياة ، عندما انعدمت الرؤية الصحيحة للأشياء ، حتى إذا أزف الرحيل عن هذا الكون الدنيوي لم يكن هناك وضوح

السمات الفنية

بعـد هذه الوقفـة العجلى مع مادة شعـر ديوان عبدالله باشراحيل هذا ، يبقى أن نشير إلى شيء من تشكيلاته الأدبية . وأول ما نلحظه على بناء قصائد الديوان أن الشاعر لا يمهد لقصائده بمقدمات قد لا تكون ذات علاقة وثيقة بموضوعات القصائد ، مما يؤثر على تماسك وحدة المعنى في القصيدة .

فالقصيدة عنده تبدأ عادة منذ بداية الدائرة الأولى من دوائر تجربته الشعرية ، أو الموضوع . وهذا ينبئك بصدق تجربة الشاعر ، عندما يواجهك مباشرة بعنصرها الأول ، وقد التزم في مطالع قصائده ذات الشطرين كلها بظاهرة التصريع الذي تكون عروض البيت فيه تابعة لضربه ، تنقص وتزيد بنقصه وبزيادته ، ويعد التصريع من حيث اتفاق صدر البيت

و(أبتاه) . وألزم نفسه بما لا يلزم ، حتى وإن دل ذلك على قوة الطبع ، وكثرة المادة . فقد أثقل الطبع بذلك التصريع ، وقد صرع من مطالع القصائد البيت ، والبيتين ، والثلاثة والخمسة أبيات ، ثم صرع بعض أبيات القصائد الداخلية .

ومن نافل القول أن نشير إلى تنوع عبارته الشعرية ، الخبرية ، والإنشائية ، والفعلية ، والاسمية ، لأن هذا مما هو مألوف في بناء الجملة الأدبية الشعرية والنثرية ، ستلحظ في بناء الجملة الخبرية في شعر باشراحيل أنها لم تقف عند الخبر الإعلامي البرهاني ، وإنما حملت بعض المعاني المتجاوزة لمفهوم الخبر الذي يحتمل الصدق أو الكذب ، إلى معاني التعجب ، والتمني والإنكار ، والنفي ، والأمر ، يصادفك هذا وغيره في شعر هذا الديوان بشكل واضح . كما تصادفك عبارات الإنشاء الطلبي ، وغير الطلبي ، بصيغها الكثيرة ، والذي يهمنا في بناء الجملة في شعر باشراحيل سمات معجمه وتركيبه ، وبعض ملامح اللغة الإبلاغية .

فللشعر لغته البيانية البليغة وضعاً ومجازاً ، وفق

بها ، ولا يشاركها غيرها فيها ، إذ لو كان ذلك كذلك لوجدت معاجم لغوية لهذا الغرض الشعري أو ذاك ، لكن الأمر مبني على الغلبة أولاً ، ثم على لعبة اللغة الشعرية ، التي تعد بتقلباتها الاستدلالية ، وحالات منشئيها نشأة جديدة ، في حالة حياة متجددة باستمرار للتعبير المتجدد عن حالات وحاجات النفوس القائمة . فالبعد الديني في التجربة مثلاً تتمحور ألفاظه أكثر ما تتمحور حول الألفاظ التعبدية ، والفقهية ، والانتمائية ، الشرعية والسلوكية ، والفضائلية بعامة .

وستجد هذا المعجم الديني مبثوثاً في شعر عبدالله باشراحيل الرثائي ، وفي شعر المناجاة . حيث تجد في قصيدة (طبت وطاب) ألفاظ (القضاء ، رب الأنام ، غافر ، نعيم الجنان) ، وفي قصيدة (هذا هو الحق) ألفاظ (الأقدار ، الخلاق ، الحق ، جنات عدن ، رحمة الديان ، روح وريحان ، الخلد ، الجنة ، الإله ، الغفران) ، وفي قصيدة (أبي) (الله ، اليقين ، الراحم ، الكريم ، المولى ، الدين) . وتجد في مقابل مثل هذه الألفاظ ألفاظ المعضلات الدنيوية من مثل

الانفعالي في قوة الانجذاب إلى النص والاستجابة له .

إن معجم باشراحيل الديني جاء مفعماً بحركة نفسه وذهنه ، مشحوناً بموقفه المعاصر ، المليء بالآلام ، والهموم ، والأحزان ، ومشحوناً كذلك بتطلعاته ، وآماله المستقبلية .

ولما كان باشراحيل شاعر مواجهة مع الحدث المحرك لإبداعه الشعري ، فإن ألفاظه هي ألفاظ ذوق العصر ، حتى التراثية منها . انظر إلى معجمه التاريخي ، والإنساني ، والاجتماعي والتأملي ، والذاتي الخالص ، تجده معجماً خصباً بدلالاته المعجمية ، والوظيفية ، وثيق الصلة بمضامينه ، وتجاربه الشعرية .

أما التراكيب فيما يخص العبارة الشعرية عند باشراحيل ، فمن المعروف أن تآخي الألفاظ المعبرة عن المعنى في جزئياته وكلياته ، تأتي في صورة كثيرة لا يمكن حصرها ، إنها تأتي في أساليب نظمية تتشكل من آليات البيان العربي ، فيما عرف عند القدماء بالبيان ، والنظم وعلم الأدب ، وهي آليات اللغة من

سبق إلى أن باشراحيل شاعر مواجهة للمشكلات المعاصرة ، وهذا ما جعل فعل المواجهة الآنية ، فعل الزمن الحاضر يستأثر باهتمام الشاعر ، وعندما يستثمر الشاعر فعل الزمن الماضي ، فإن ذلك الاستثمار لا يعد هرباً من الحاضر ومشكلاته ، لأن في ذلك الاستثمار إسقاطاً على نفسية الشاعر المتوترة من مواجهة الحدث المعاصر ، علها تجد في الماضي شيئاً من زيادة الدفع إلى المواجهة ، واستنهاض مكامن القوة المختزنة في ذاكرة ما كان ، وتفعيلها فيما يكون . وقصيدة (عصر التيه) نموذج تطبيقي صالح لوفرة صيغة الفعل وتنوعها (حاضراً ، وماضياً ، ومستقبلاً) .

ومن الظواهر الأسلوبية ذات الملمح الوفير أيضاً ، ظاهرة التكرار . وللتكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ، وأكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني ، تدفع إلى ظهوره قوة العاطفة ، وحدتها ، واندفاعها نحو الأعلى في توتراتها ، وتفاعلها مع الحدث ، لذلك يكون التكرار دافعاً من دوافع الاستجابة للحدث ، على جهة التشوق ،

من لنا إلاك حين الوقت يزري

تنصر العاني على الوقت الضنين

إن السؤال هو بداية الطريق للوصول إلى الحقيقة الكونية ، فالبحث عن الذات ، وعن الأشياء يبدأ بالسؤال عنها ، تمهيداً للوصول إلى الجواب ، وقد لا يصل إلى شيء من ذلك فيبقى السؤال قائماً . ومن الظواهر الأسلوبية ذات الملمح البارز في شعر باشراحيل ، ظاهرة الاستفهام في بُعديه التصديقي والتصوري ، وقد استعمل من أدوات الاستفهام (الهمزة ، وهل ، وما ، ومن ، وأي ، وكم ، وكيف ، وأين ، ومتى) . انظر بعض هذا في الأبيات التالية :

ألم أحذركم عمراً وأنصحكم

واليوم قلتم بأن الدهر ضيَّعنا

. . . .

وأقــول مـن؟ وتقــول مـن؟

هذا الصـدى صـوت الـزمن

مـــاذا يـحـــدث دهـرنـا؟

اتخذ من بعض الرموز الثقافية الشخصية التراثية والمكانية ، ذات العمق التاريخي ، والحوادث ، والوقائع العربية والإسلامية .

اتخذ من ذلك كله حضوراً معاصراً ، أسقطه على نفسه ، وعلى قدره المتأزم أمام متطلبات عصره ، فاستحضر بعض شعراء العربية وفرسانها وقيادييها . من أمثال الخلفاء الراشدين ، وأسامة ، وابن معدي كرب ، وعنترة ، وصلاح الدين ، واستحضر أمكنة دارت فيها انتصارات المسلمين ، وقيماً حضارية ، مادية وفكرية جاءت على شكل تداعيات خاطرية في موضوعات شعرية متنوعة ، رسم الشاعر من مادتها لوحة نصية ، ضخ في أبعادها وظلالها كل ما ماجت به نفسه من أحاسيس وأفكار ، جاء بعضها على شكل القص الذي توافرت فيه عناصر الزمان ، والمكان ، والحدث ، والشخصيات . هذا ما أوحت به قصائده المتحررة ، وما ظهر جلياً في قصائد من مثل قصيدة (عنا قيد الخديعة) ، وقصيدة (عودة الحب) ، وقصيدة (لغة الحياة) ، وقصيدة (يوم التكريم) ، وقصيدة (أبتاه) . فقد برز في مثل هذه القصائد

صوت مستقل

لقد وسم باشراحيل شعره بميسمه الخاص . والتفرد الشعري ، أن يكون الشاعر منتمياً إلى قضية ، وإلى تصور ينطلق منه ، ويعود إليه بما يحمل من أفكار ، وتصورات جديدة وأن يكون صاحب موقف يؤكده ، ويوسعه من خلال توسيع نظرته إلى الحياة ، وأن يكون صاحب رسالة إنسانية هادفة ، وأن ينتصر على مشكلاته بقوة الإرادة ، والإصرار على الوصول إلى الغايات ، والأهداف الكبرى ، التي يتطلع إليها الإنسان الفاعل على مسرح الحياة بصدق وإخلاص لمبادئه وقيمه .

وفي شعر باشراحيل روحه المنطلقة إلى البحث عن الأحسن ، والأفضل ، والأقوى ، وفيه صوته المستقل ورؤيته الخاصة للأشياء ، الذي لم يتداخل مع أصوات غيره من

فهل فعلاً لو تحققت هذه الآمال للشاعر سيهنأ بحياته ، ويقنع بما تحقق له . إن الشاعر دائماً متجاوز للحالة الراهنة ، متطلع إلى ميلاد الحالة الجديدة المتصورة ، ونفس كما هي نفس باشراحيل لا تستسلم للراهن مهما تحقق فيه من الآمال والرغبات ، إذ إن حياة تلك النفوس لا يكون إلا في تطلعها المتجاوز باستمرار لراهن .

إن هذه القراءة التي تناولنا فيها الخطوط العريضة لمادة هذا الديوان ، من حيث تنوّع المضامين وخيارات اللغة التي شكّل بها باشراحل شعره في هذا الديوان تتضامن مع ما كتبه غير واحد عن شعر باشراحيل . من أمثال هاشم رشيد ، وحسين عرب ، ود . عباس عجلان ، والأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة وغيرهم . فقد أشاد هؤلاء بشاعرية عبدالله محمد صالح باشراحيل ، وثمّنوا هذا الصوت الشعري العربي الأصيل المتميز في موقفه من قضايا الأمة . فهو لم ينظر إلى مشكلات أمته ووطنه نظرة سوداوية ، ولا نظرة المتشائم ، ولا المحبط المنهزم أمام متطلبات عصره .

المؤلف في سطور

محمد بن مريسي بن سعد آل يزيد الحارثي

- مكان الميلاد : الصور ، بني الحارث ، المملكة العربية السعودية .
- الوظيفة الحالية : أستاذ النقد الأدبي بقسم الدراسات العليا العربية – كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى – مكة المكرمة .
- المؤهل العلمي : دكتوراه .
- التخصص الدقيق : النقد الأدبي .

الأعمال الوظيفية:

- عمل مدرِّساً بوزارة المعارف .
- عمل محاضراً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- عمل أستاذاً مساعداً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
- انتقلت خدماته إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٠١هـ .

الأندية الأدبية ، وحكّم مسابقات ثقافية وأدبية شعرية ونثرية .

- أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه وناقش العديد منها .
- عضو مجلس الإدارة بنادي مكة الثقافي الأدبي .
- عضو هيئة تحرير مجلة «البلد الأمين» التي يصدرها نادي مكة المكرمة الثقافي الأدبي .
- عضو هيئة تحرير مجلة «المركز العالمي الإسلامي» (سابقاً) .
- عضو مجلس معهد البحوث والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى .
- عضو مجلس مركز بحوث اللغة العربية بجامعة أم القرى .

الكتب المطبوعة :

١- عمود الشعر العربي - النشأة والمفهوم .
٢- الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري .
٣- عبد العزيز الرفاعي أديباً .
٤- الرصيد اللغوي لطلاب المرحلة الابتدائية بالمملكة العربية السعودية (بالاشتراك) .

الكتب المخطوطة:

١- ابن قتيبة وجهوده النقدية (رسالة ماجستير) .